

عظة الأب سليم دكاش، في جناز الأربعين لوفاة السيّد ريمون عوده، في كنيسة القديس يوسف، يوم السبت الواقع فيه 3 أيلول (سبتمبر) 2022 في الساعة السادسة والنصف مساءً.

في هذا القدّاس العائليّ للغاية، وبما أنّنا نتذكّر شخصاً ريمون عوده، الذي ربطتنا فيه علاقات عاطفيّة، مع العلم أنّ القدّاس والاحتفال الإفخارستيّ يوسّعان قلوبنا ويقوداننا نحو الأعلى والأرحب، إلى وحدة مع جميع إخوتنا المعمّدين بالمسيح، الرجال والنساء ذوي الإرادة الصالحة. لقد استمعنا إلى نصوص الكتاب المقدّس وكلماته، وقراءة كتاب الحكمة، تدعوننا، قبلاً، إلى مجيء يسوع المسيح، إلى التفكير في حالتنا الفانية أولاً، وعدم اليقين الذي يؤثّر على فهمنا للعالم أيضاً. لكن نيّة الله هي أن يبقى محبباً لشعبه، ويرسل من عالمه الإلهيّ الحكمة وروحه القدّوس : فهو القدّوس يعلمنا بنفسه كيف نوائم حياتنا مع مشيئته، وكيف نسير باستقامة، وهذا ما يخلّصنا. عيد العنصرة ليس بعيداً. تبرز كلمات المزمور 89 الرسالة الموكلة إلينا، تطلب منا أن نبقى على علاقة قويّة وذي ثقة مع الله، طالبين منه التدبير الصحيح، وأن تفهم قلوبنا جيّداً الحكمة المعطاة لنا وتتكلم عليها. وهكذا يصبح الإنسان شريكاً في ذكاء الحكمة وإعلانها، وفي عيش محبة الله كلّ يوم. مع القدّيس بولس، في السجن بسبب المسيح، نشهد قفزة نوعيّة، إذ دعا تلميذه فيليمون، أن يعتبر خادمه أنسيمس Onésime، ليس في حالة عبوديّة، بل كأخ محبوب. يعرف القدّيس بولس كيف يكون حنوناً وقريباً. يعتبرنا يسوع المسيح إخوة مخلصين بالمحبة حيث لم تعد هناك تلك الهويّات المنغلقة على نفسها، اليونانيّة، والمستعبدة واليهوديّة... العيش من الحبّ الإفخارستيّ تجاه يسوع المسيح يعمّد البشر في الأخوة الإبراهيميّة المشتركة.

في نصّ الإنجيل، يخاطب يسوع الجموع التي تتبعه وليس التلاميذ أو الرسل المختارين. بهذا المعنى، نفهم بشكل أفضل رسالة يسوع : الخلاص الذي يكمن في قبول محبة الله يتطلّب من كلّ واحد منا أن يختار، وأن يضحّي بروابط عاطفيّة أعطاه الله لرباط أكثر ثباتاً، ألا وهو أتباع المسيح. ومع ذلك، فإنّ الإنجيل لا يطلب منا قطع الروابط البشريّة التي ستظلّ دائماً ثابتة، ولكنّه يطلب أن نعطي حياتنا هدفاً، باتّباع قصد معين، وهو أن نحبّ من دون شرط، بل وأكثر من ذلك، محبة يسوع المسيح أكثر من أي شخص آخر، يضع نفسه في موقف الحرّيّة، في مدرسة المعلم، بأن يصبح تلميذاً يشارك حياته مع المعلم. في الواقع، يسوع يطلب من الجموع، أي كلّ مسيحيّ معمّد أن يفضّله على البقيّة، وأن يشاركه طريقة تفكيره وحياته، وحتى مصيره. المصير المخصّص هو الصليب، إنّه معنى هبة حياتنا، ما نملكه، لكن ليس أن نصبح خداماً، بل أصدقاء : "أنا لا أدعوك عبداً بعد اليوم، بل أحبائي" يقول الربّ في الإنجيل بحسب القدّيس يوحنا.

نحن نفهم بشكل أفضل رسالة النصوص الكتابيّة التي استمعنا إليها، عندما نفكر بريمون عوده، المصرفيّ، والوزير، والعضو في عشرات مجالس الإدارة، والراعي والداعم للعديد من الأشخاص. في ضوء معنى كلمات الكتاب المقدّس، في هذا الأحد، لا يسعني إلا أن أشهد على إحساسه الكبير بالأمانة في الصداقة، وعلى تفاؤله ومشاركته. عندما طلبتُ منه يوماً ما أن يصبح عضواً في مجلس إدارة مدرسة سيّدة الجمهور، كان جوابه أنّه كان يضع نفسه، بدافع الأمانة، في خدمة المدرسة حيث قضى جزءاً من شبابه، متذكّراً جيّداً كنيسة القديس يوسف هذه حيث كان يحضر القدّاس بانتظام لدرجة كاد يمتضى فيها حياته في حضور القدّاس، كما كان يقول على سبيل المزاح. كان يقول لي إنّ الدراسة في المدرسة، على رغم صعوبتها، درّبتني في مدرسة العمل الجادّ القاسي، وبذل الذات غير المشروط، وفي مدرسة الشغف لأسرته، وبلده وعمله. هكذا كان فخوراً بأن يكون المرشد لإنجازاته، سواء بالنسبة إلى متحف الصابون في قصر عوده في صيدا أو المقرّ الجديد لبنك عوده في قلب بيروت. كانت المشاركة، بالنسبة إليه، تُدعى قصّة التزامه عدّة مرّات بأمانة للقضايا الاجتماعيّة والتربويّة المختلفة وأشكال التعبير الفنّي المختلفة. والمثال الذي يجب تقديمه هو هذه الكنيسة بالذات التي تستقبل عدّة مرّات في السنة الأوركسترا الفيلهارمونيّة اللبنانيّة التي دعمها عاشق الموسيقى بحماس كبير للحفاظ على وجودها وتطوّرها. سنتذكّر وحدة العناية المركزيّة لقلب الأطفال، لفترة طويلة، العمل الملتمزم الذي قام به ريمون عوده في مهمّته لإنقاذ أكبر عدد من الأطفال المصابين بأمراض القلب. خلال الفترة التي قضاها في الحكومة في العام 2008، بصفته وزيراً للمهجّرين، كان يخبرني بروح من الدعابة أنّها الوزارة التي يتعيّن فيها الدفع للمقيمين أكثر من المهجّرين أنفسهم وأنّه تعهّد بالقيام بذلك من أجل توظيف السلام الاجتماعيّ حيث أنّ ضمان هذا السلام هسّ للغاية، لكنّه باهظ الثمن.

لم يكن ريمون عوده يتردّد، في موقف متأزّم ينهار فيه كلّ شيء، في إظهار تفاؤله، فللخروج من الأزمة، يجب النظر إلى نصف أو حتّى ربع الكوب الممتلئ بدلاً من الانغماس في الشكوى المستمرّة بسبب نصف الكوب الفارغ. لا ينبغي أن يكون هذا التفاؤل مجرد وجهة نظر، بل عمل يقوم على الإيمان بمستقبل بلد ومواطنيه الذين كان فخوراً برويتهم متعلّمين ومتطوّعين.